أثر الرواية الأدبية في بناء المنهج النقدي في كتاب 'الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمَرْزُبَاني'

The impact of the literary novel in the construction of the critical approach in the book 'Al-Moashah in the defects of scientists on the poets of Al-Marzobani'

برباري شهيرة/ طالبة دكتوراه
أ.د. بشير تاوريريت
قسم الآداب واللغة العربية-جامعة محمد خيضر-بسكرة(الجزائر)
مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها
chahiramj@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2019/09/25 تاريخ القبول: 2019/10/21

ملخص:

تعد الرواية الأدبية أسلوبا من أساليب التواصل المعرفي لدى العرب في بداية العهد النقدي؛ من خلال نقل المرويات الأدبية من شخص أو من مكان إلى آخر، وتأتي هذه الدراسة لتسلط النظر على هذه القضية المهمة في مسار التأسيس المنهجي للنقد الأدبي العربي القديم، والهدف من ذلك كشف مدى تأثير ذلك على النقد الأدبي منهجا وممارسة، واخترنا لذلك مقاربة بعض النماذج من كتاب (الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء) للمَرْزُباني؛ بوصفه مدونة نقدية مهمة في تأريخ آراء العلماء في القول الشعري ونقده، وتخضع في تصنيفها لقضية الرواية الأدبية ومنهجها العلمي.

الكلمات المفتاحية: الرواية الأدبية، المنهج النقدي، الموشح، المرزباني.

Abstract: The literary Novell is a way of knowledge communication to the Arabs at the beginning of the monetary covenant , through the transfer of literary narratives from a person or from place to another, this study comes to shed light on this important issue in the process of systematic foundation of the ancient Arab literary criticism, The objective is to uncover the impact on literary criticism method and practice, and we choose to approach some of the models from (Al-Moashah in the defects of scientists on poets) Al-Marzobani book ,as an important blog in the history of scientists views in the poetic and criticism, and is classified in the issue of the literary novel and its scientific method.

Key words: Literary Novel, Critical Approach, Al-Moashah, Al-Marzobani.

1- مقدمة:

تعد الرواية الأدبية أسلوبا من أساليب التواصل والتبادل المعرفي لدى العرب في بداية العهد النقدي؛ من خلال نقل المرويات الأدبية بين شخص وآخر، وقبيلة وأخرى في البيئة العربية القديمة.

حيث كان العرب قديما يعتمدون على الذاكرة في حفظ أنسابهم وأيامهم وأخبارهم وكل ما يتعلق بهم، فكانت الذاكرة هي السجل الوحيد لذلك.

وكان الأدب وخصوصا الشعر ضمن ذلك؛ فقد حرصوا على حفظه وتناقله بينهم مكانيا وزمانيا، وقد مثل بدوره سجلا وديوانا حافظا للأنساب والأيام والأخبار.

أما عن المدلول اللغوي لمصطلح (الرواية) فله بعد حسي؛ فهو يطلق على إناء يحمل فيه الماء كالمزادة، أو حيوان يحمل عليه كالجمل، أو إنسان يحمل الماء ويتعهد بالسقاية، ثم صارت (الرواية) بعد ذلك تطلق على مجرد الحمل، ومن مجاز هذا الحمل حمل الحديث والشعر؛ فراوي الشعر هو من يحمل شعر الشاعر وينقله ويذيعه بين الناس؛ يقول الجاحظ (ت255هـ): "الراوية: هو الجمل نفسهن وهو حامل المزادة، فسميت المزادة باسم حامل المزادة، ولهذا المعنى سموا حامل الشعر والحديث راوية"[1]

وقد ورد في لسان العرب هذا المدلول: "روّى فلان فلانا شعرا إذا رواه له حتى حفظه للرواية عنه ...، ويقال: روّيته الشعر تروية، أي: حملته على روايته، وأرويته أيضا"[2]

فالدلالة المعجمية للرواية لم تخرج عن صورة التواصل ونقل النصوص، التي كانت تمثل مظهرا ثقافيا في البيئة العربية آنذاك، يقول القاضي الجرجاني (ت396هـ): "وقد كانت العرب تروي وتحفظ، ويعرف بعضها برواية شعر بعض"[3]، فهي كذلك صورة تعبر عن حاجة المبدع في التواصل مع غيره وحفظ تجربته ونقلها.

وضمن هذه الحاجة شكلت الرواية أداة مهمة بالنسبة للشاعر ذاته؛ ولذلك جاءت إشارات النقاد وتأكيدهم أهمية الرواية بالنسبة للشاعر، ومنهم ابن رشيق القيرواني (ت414هـ) الذي عرض آراء الرواة حول إلزامية رواية الشاعر للشعر في قوله: "وقد سئل رؤبة بن العجاج عن الفحل من الشعراء، فقال: (هو الراوية)؛ يريد إذا روى استفحل، قال يونس بن حبيب: (وإنما ذلك لأنه يجمع إلى جيد شعره معرفة جيد غيره، فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة)، وقال الأصمعي: (لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي أشعار العرب، ويسمع الأخبار، ويعرف المعاني، وتدور في مسامعه الألفاظ)"[4]

وأوردها القاضي الجرجاني في تعريفه للشعر باعتبار أسسه وخصائصه قال: "الشعر علم من علوم العرب، يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له"[5]؛ حيث أدرك القاضي الجرجاني أن الشعر يقوم على جملة من المقومات والأركان وحصرها في أربعة عناصر تمثل عناصر الإجادة في الشعر، ومقومات تفرد المبدع، ومنها الرواية التي جعلها معيارا لشاعرية الشاعر حين قال: "فإذا استكشفت عن هذه الحالة، وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكي لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلا رواية، ولا طريق للرواية إلا السمع، وملاك الرواية الحفظ، وقد كانت العرب تروي وتحفظ، ويعرف بعضها برواية شعر بعض"[6]، وغير ذلك من آراء النقدية المبثوثة في المؤلفات النقدية العربية القديمة التي أجمع أصحابها على أهمية الرواية بوصفها شرطا وأداة من أدوات الإبداع لدى الشعراء.

2- الرواية والتوثيق:

تمثل الشفاهية أولى سمات الرواية الأدبية، فقد اعتمدت في بداية عهدها على الذاكرة، وهي سمة طبيعية تتصل ببداية التقاليد الثقافية في أي مجتمع من المجتمعات، إذ تعتمد الشفاهية التي تتناقل عبرها المعرفة وعليها يعتمد المتلقون، وبعد مرحلة التدوين يمكن القول إن الرواية الأدبية وصلت مرحلة النضج فقد انضمت الكتابة إلى المشافهة، لا لتكون بديلا عنها، بل جاءت رافدا ثقافيا لحركة الرواية، ومساندا توثيقيا لها[7]، وضمن هذه الثنائية (رواية/توثيق) التي شكلت قضية نقدية مهمة نجم عنها البحث في أصل النص وصحته.

ويمكن القول إن مشكلة الرواية والتوثيق مظهر لتحرير النصوص؛ أي "التأكد من مجموعة أمور تتعلق بها، من ذلك صحة نسبتها إلى أصحابها، والتأكد من صحتها وخلوها من التشويه والتحريف، أو الزيادة أو النقصان، وتحقيق تاريخ النص أو زمان تأليفه والمرحلة التي ينتمي إليها"[8]

والرواية الأدبية صورة من تقاليد العرب في التواصل، ونقل النصوص وحفظها، وهي ترتبط "بحركة التغيير التي يقصد إليها النشاط الأدبي في التواصل الجمالي والخلقي، وبتربية الذوق وتهذيبه وصقله"[9]، كما تمثل صورة من صور التواصل المعرفي في البيئة العربية القديمة بين الأدباء والعلماء؛ فقد "كان الشعراء والخطباء والناطقون بالمثال والحكمة مؤلفين وناشرين للقيم، ولم تكن وسيلتهم في تبليغ ما يؤلفونه من كلام منظوم ومنثور ألسنتهم وحدها، فهذه كانت تخبو كما يخبو كل صوت بعد موت صاحبه، بل كانت وسيلتهم في ذلك النشر رواة أدبهم وسيرهم"[10]، والجابري في ذلك يوافق الأصفهاني فيما ذهب إليه، كما يشير إلى الأساس في هذه القضية؛ وهم الرواة.

وحاصل ما يقال إن الرواية الأدبية اتسمت بالشفاهية من حيث وسيلة نقل المرويات، وآلية التواصل بين الرواة، وذلك في بداية عهد الرواية حتى أواخر القرن الثاني للهجرة فكان الأمر محصورا في التواصل الشفاهي، لكن أفق الرواية قد امتد واتسعت فضاءاتها، من خلال الدخول في مرحلة الرواية المكتوبة بوصفها وسيلة نقل أخرى للرواية الأدبية[11]

فبعد ظهور التدوين بدأ شيئا فشيئا "يحل محل المشافهة، ومن ثم فقد أخذ المؤلف يحل محل الراوية، على أنه يتعين علينا أن نأخذ هذه الحقيقة بشيء من التريث واللين، نعم بدأت الكتابة تحتل مرتبة مخصوصة في مجال الثقافة العربية عموما، وفي مجال أدب الأخبار خصوصا، ولكن المشافهة لم تضمحل بعد"[12]

لقد أدرك محمد القاضي وعي العلماء والنقاد بهذه النقلة للرواية الأدبية من الشفاهية إلى الكتابية، حين جمعوا في استشهاداتهم وتعليقاتهم وآرائهم في قضايا الأدب والشعر بالروايتين، وهو امتداد لوعي الرواة بذلك، ويظهر ذلك جليا في كتب النقد الأدبي التي ألفت في القرن الثالث الهجري وصولا إلى القرنين الرابع والخامس الهجريين.

ففي النصف الأول من القرن الثالث "ظهر الميل إلى التأليف في حقل النقد الأدبي، الذي بدأت أولى عتباته مع ابن سلام الجمحي (ت232ه) في عمله المؤسس طبقات فحول الشعراء، ومعه بدأت نقطة التحول تظهر في المشهد النقدي العربي؛ من خلال توجه بعض ممن كان مشتغلا بالرواية والرواة إلى التأليف والتأسيس لخطاب نقدي جديد، إرهاصا وتمهيدا ليكون النقد بعد ذلك حقلا مستقلا بذاته من بين حقول المعرفة في التراث العربي"[13].

ورغم أن الرواة كانوا محل نقد من قبل النقاد حول صحة ما يروون من شعر ومدى علمهم به، حتى نفى بعضهم عنهم الحس النقدي فيما ورد عنهم من آراء نقدية فيما رووا من شعر، ولعلنا نقف منها عند النص الذي ورد عند أبي بكر الصولي في كتابه (أخبار أبي تمام) في ذلك: "الرواة يعلمون تفسير الشعر ولا يعلمون ألفاظه، وإنما يميز هذا منهم القليل"[14]؛ في إشارة منه إلى أن العلم بالشعر ونقده قائم بذاته وله أهله وهم النقاد، ولا تكفي الآراء التي يعرضها الرواة حوله لدخولهم تحت لوائه.

وهذا ما قصد إليه وأقره الجاحظ قبله؛ حين فرق بين جمع الشعر وهو عمل الرواة، والعلم بالشعر وهو عمل النقاد، يقول: "طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب"[15]

من ذلك تعليق محمد القاضي على كتاب الأغاني في قوله: "والناظر في كتاب الأغاني يلاحظ أنه بين دفتيه نصوصا جاهلية وإسلامية وأموية وعباسية، نقل بعضها الآخر بطريق الكتابة"[16]

وما قيل عن كتاب الأغاني يقال كذلك عن عديد المدونات النقدية التي اعتمدت على الروايتين مثل طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي وأخبار أبي تمام وأخبار البحتري للصولي والموشح للمرزباني وغيرها؛ مما يوحي ببحث هؤلاء النقاد وتتبعهم لتطور الرواية الأدبية وشخصيات الرواة، خصوصا فيما تعلق بتطور آلياتهم تبعا لتطور العصر وأدواته المعرفية،

كظهور التدوين الذي شكل محورا مؤثرا في الرواية الأدبية من حيث سماتها وتأثيرها في الحركة النقدية، فحين "نجد بعضا من الرواة فيما سبق هذه المرحلة -الكتابة والتدوين-، قد اعتمد على المشافهة فحسب في مروياته الأدبية، فإننا نجد في مرحلة النضج في الرواية الأدبية وما تلاها من مراحل، أن الوعي بثنائية (المشافهة/الكتابة) لدى بعض الرواة لم يكن غائبا أو في حكم الغياب"[17]

ولا يهمنا هنا الخوض في مسألة المشافهة والكتابة إلا بقدر ما يوضح أثرها في حركة النقد المنهجي عند العرب قديما؛ وذلك من خلال صلتها بمنهج الشك والتحقيق والتوثيق للنصوص الإبداعية وربطها بأصحابها، ومرد هذه النقلة المنهجية النوعية هو انتقال الرواية من مرحلة المشافهة إلى مرحلة التدوين، وقد نتج عن ذلك الوعي النقدي ببحث ومناقشة قضية توثيق النصوص وأصالتها، أدى هذا البحث إلى ظهور قضايا نقدية على مستوى التنظير والتطبيق أسهمت في تبلور المنهج التاريخي بآلياته الدقيقة عند النقاد العرب.

كما تجدر الإشارة إلى أن التأخر في تدوين الروايات، والشك في ضبط الذاكرة وعدالة الرواة، كان من أقوى عوامل تبلور المنهج النقدي في بحث وتمحيص وتدقيق الروايات المنقولة؛ وهو ما أعطى الرواية الشفاهية التي قبلتها المصادر المكتوبة فيما بعد قيمة توثيقية لم تحظ بها الوثائق المكتوبة نفسها مع بداية التدوين*، أين ظهرت قضية أخرى ترتبط بالرواة، وهي الشك حول ثقتهم من عدمها، ومن جهة أخرى أثر اختلاف المشارب العلمية والثقافية للرواة على التنوع في الروايات المنقولة عنهم، وهي سمة أضفت الثراء المعرفي والمنهجي على النصوص المروية، كما أحدثت الاختلاف في تعامل العلماء والنقاد مع الروايات بحسب اختلاف مقامات أصحابها، وتأثيرها على النص المروي من جهة الحكم عليه.

ويمكن تقسيم هؤلاء الرواة بمرجعية هذه المقامات إلى أربع فئات هي: الراوي العالم، والراوي الشاعر، والراوي الناقد، وراوي القبيلة.[18]

3- الرواية الأدبية ورواية الحديث:

إن الحديث عن الرواية الأدبية والرواة يقودنا إلى الوقوف عند قضية مهمة حول ذلك؛ وهي مدى تأثر هذه القضية النقدية بقصية الرواية والرواة عند علماء الحديث، وسنقف عندها

بشيء من التفصيل حول العلاقة بينهما التي نراها من صميم البحث في هذه القضية بصورة عامة، ومسألة الرواة وتوثيق النصوص بشكل خاص.

"والباحث في التاريخ يعنى أكثر ما يعنى بضبط الحوادث وفحص الإسناد، والموازنة الزمنية بين الأخبار، والتدقيق في الروايات المختلفة للحادثة الواحدة، وإعطاء تفسير منطقي للتعارض الظاهر بين الروايات وتقديم فكرة عن الظروف المحيطة بحادثة ما، والأسباب التي دفعت إليها"[19]

"ويرتبط علم التاريخ عند العرب بعلم الحديث، الذي يعتمد في جزء كبير منه على نقد الخبر والأثر وفق طريقة دقيقة، وقواعد صارمة تؤدي إلى نتائج صحيحة، ويعد نقد الإسناد الذي يعتمد على الجرح والتعديل من أهم مظاهر علم الحديث"[20]

"ومناهج علم الحديث وعلم الجرح والتعديل بخاصة، من الأدوات التي أثبتت جدارتها وفاعليتها العلمية؛ ولا سيما في الجوانب المتعلقة بالشعراء ورواة الشعر. وقد أثرت مناهج المحدّثين في طوائف كثير من علماء العربية وعلومها، ومنها علوم اللغة والتاريخ والنقد الأدبي، وكانت مصدرا أصيلا من مصادر نقد الشعر عند العرب"[21]

"ومن المعروف أن علوم الحديث كانت أسبق إلى الظهور، لأن علماء الحديث كانوا أحرص من غيرهم على تقييد السند وضبط مراحله، وبخاصة بعد الفتنة الكبرى واضطراب أحوال المسلمين بعدها بسبب انقسامهم شيعا وأحزابا، فلا غرو أن تؤثر علوم الحديث في اللغة والأدب والنقد، للسبب التاريخي، ولسبب آخر هو كونها تمثل العقلية العربية الإسلامية، والمنهج الفكري الأصيل لدى المسلمين"[22]

"ولعلماء الحديث – كما يظهر في كثير من كتبهم – أسس ومبادئ علمية على جانب كبير من الدقة في اعتماد المصادر بأنواعها كافة، وفي النص على نوعية المعتمد منها والمرفوض، ولعله من المعروف جدا أن المصادر الشفهية أو الرواية كانت النوع الأكثر شيوعا بين أهل الحديث، أو إن شئنا الدقة قلنا إنها الأكثر اعتمادا عندهم"[23]

"وقد نص علماء الحديث على وجوب نقل الحديث شفاها، فكان كل حديث في كتبهم يصدر بسلسلة من الرواة، تبدأ من مؤلف الكتاب وتنتهي بمصدره الأصلي، وهذه السلسلة هي ما

اصطلحوا على تسميته بالسند الذي احتل ذكره مكانة كبيرة عندهم"[24]، والإسناد عملية يقوم بها الراوي؛ "تتمثل في إنشاء خيط واصل بينه وبين مصدر الخبر، هذا الخيط هو السند"[25]

ويشير أغلب الدارسين إلى أن وجه تأثر منهج البحث في الرواية الأدبية بمنهج علم الحديث يرتبط أساسا بقضية الإسناد، "فمن أبعاد الخصوصية للرواية الأدبية ما يتعلق بالإسناد، وهو وإن كان من قبيل التقاليد العلمية المشتركة بين رواة الأدب ورواة الحديث، إلا أننا نستطيع الوقوف على ما يميز إسناد الرواية الأدبية عن إسناد رواية الحديث من عدة جوانب؛ أول هذه الجوانب ما يتعلق بتلقي الإسناد في الرواية الأدبية ورواية الحديث النبوي"[26]

يظهر ذلك في أن "الإسناد في الحديث النبوي وسيلة لتحقيق الحديث؛ أي البرهنة على أنه حقيقي قد صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم فعلا، أما في الخبر الأدبي فالإسناد وسيلة للمشاكلة؛ أي إيهام القارئ أو السامع بأن الخبر ممكن الوقوع (...) فإن كانت غاية المحدّث من الإسناد أن يثبت انتماء الخبر إلى الواقع، فغن هدف راوي الأخبار أو مؤلف كتب الأخبار ان يعطي الانطباع بأن الخطاب له بالواقع نسب"[27]

وهناك من يرى أن لا علاقة للرواية الأدبية برواية الحديث وينفي تأثر الأولى بالثانية كناصر الدين الأسد الذي يرى أن: "الرواية الأدبية أصل قائم بذاته، وقد وجدت عند العرب منذ الجاهلية، فكان علماء النسب الجاهليون ومن أدرك منهم الإسلام، يأخذون علمهم بالنسب عن شيوخ هذا العلم ممن تقدمهم أو عاصرهم، وكذلك كان رواة الشعر والأخبار الجاهلية"[28]

وقد ذهب الرافعي إلى أن الشعر لم يدون مبكرا، ولم يكن فيه إسناد؛ لأنه لا خطر له ولا يتعلق به أمر من أمور الدين، بل هو لا يعدو أدبا ونافلة وبابا من التطوع، أما الدافع الرئيس لرواية الحديث بالارتكاز على السند هو الدافع الديني التعبدي المتمثل في صون الحديث وحفظه.[29]

وفي ذلك إشارة إلى العلاقة بين الروايتين من حيث السبق، "أما من حيث السبق التاريخي العام فإن إجماع الباحثين هنا قائم على أن الرواية الأدبية من حيث الظهور التاريخي كانت أسبق من رواية الحديث النبوي؛ إذ وجدت هذه الرواية عند العرب قبل الإسلام"[30]

"وداخل هذا السبق التاريخي العام يأتي السبق الخاص؛ وهو السبق من حيث التقنين العلمي والمنهجي، وهذا محل اختلاف بين الباحثين؛ إذ يرى بعضهم أن رواية الحديث النبوي

كانت هي الأسبق من حيث الضبط العلمي والمنهجي، أي تحول الرواية إلى صناعة علمية"[31]، كما يرى الرافعي الذي يعد من أوائل القائلين بهذا "أن العرب إنما جرت في إسلامها من أمر الشعر والخبر والنسب ونحوها، على مثل عادتها في جاهليتها، فلا جرم أنهم كانوا ينسبون أكثر ما يتناقلونه، إلا أن النسبة غير الإسناد فيما اصطلح عليه الرواة، وهذا لا يستقيم إلا إذا صارت الرواية صناعة علمية، ولم يكن في العرب شيء من ذلك بالتحقيق، إلا بعد قيام دولة بني مروان، حين اتخذوا المؤدبين لأولادهم وذلك هو العهد الذي تسلسل فيه إسناد الحديث أيضا لتشعب طرقه"[32]

في مقابل هذا الرأي رأى بعض الباحثين استقلالية الرواية الأدبية عن رواية الحديث، من حيث التقنين العلمي والمنهجي، والسبق في ذلك للرواية الأدبية؛ وهو ما ذهب إليه ناصر الدين الأسد الذي يرى أن: "الرواية سبيل طبيعية في كل عصر وعند كل أمة، حتى حين تنتشر الكتابة وتذيع، بينما كانت رواية الحديث أمرا طرأ على العرب بعد الإسلام، فإن لم تكن رواية الحديث من حيث الطور الزمني متأثرة برواية الأدب وفرعا منها، فالروايتان أصلان انبثقا عن الحاجة الملحة انبثاقا طبيعيا"[33]

لكن باستقراء ما سبق يظهر أن السبق التاريخي كان من نصيب الرواية الأدبية، أما الضبط العلمي والمنهجي فكان لرواية الحديث النبوي، وهذا الضبط الدقيق مرده إلى الاختلاف بين الروايتين في المحتوى، ولعل نص الأصمعي السابق دال على ذلك، والنص الذي ذكره ابن قتيبة (ت337هـ) عن شعبة بن الحجاج في قوله: "وكان يقول: والله لأنا في الشعر أسلم مني في الحديث، ولو أردت الله ما جئتكم، ولو أردتم الله ما جئتموني" (المعارف، ص501)، وهو نص ذكره أحمد جاسم النجدي في مقالته (أثر علماء الحديث في منهج البحث الأدبي)، مستشهدا به على انتفاء علاقة تأثيرية بين الروايتين، معلقا عليه بقوله: "كثير من الأقوال والنصوص الصادرة عن القدامى تشير صراحة إلى اختلاف واضح بين العلمين في مجال الدراسة والتأليف، وما يتعلق بهما من أمور علمية، من مثل ما يذكره ابن قتيبة عن شعبة بن الحجاج (...)، وكلام شعبة هذا واضح الدلالة على اختلاف العلمين اختلافا أساسيا في المنهج؛ إذ لو كان منهج رواية العلمين واحد لما صدر عنه قوله هذان ولما رأى نفسه أدق في رواية الشعر منه في رواية الحديث"[34]

والحقيقة أن الاختلاف والاستقلالية بين العلمين لا ينفي التأثير بينهما في المنهج؛ إذ التأثر والتأثير لا يعني أبدا الأخذ بالمنهج كما جاء في العلم المتأثر به بآلياته ومبادئه ونقلها وتطبيقها

بحذافيرها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلحظ أن نص ابن قتيبة فيه دلالة على الخصوصية المعرفية والعلمية والمنهجية بين الروايتين، لا العلاقة بينهما؛ إذ يشير هذا النص إلى الدقة في الضبط والتصحيح والتوثيق للحديث النبوي، لأن الأصل فيه المحتوى التعبدي، وقد تقل دقة هذا الضبط في الرواية الأدبية، وذلك لاختلاف أسس وشروط كل نص منهما.

كما رأى بعض الباحثين أن المنهج في الرواية الأدبية تأثر في هذه المسألة تحديدا – الدقة والضبط – بمنهج تتبع رواية الحديث، من ذلك ما يراه شوقي ضيف في قوله: "وعلى نحو ما تشدد المحدّثون في رواية الحديث النبوي، وجعلوا أساسها اللقاء والمشافهة، تشدد علماء اللغة والشعر؛ فكانوا لا يقبلون رواية الشعر من صحيفة ولا من مصنف مكتوب، بل لا بد أن يكون أساسها الأخذ عن عالم ثبت في الرواية وفي اللغة، ومضوا يعنون عناية بالغة بالإسناد على نحو ما عني المحدثون بإسناد الحديث"[35]

ومما تجدر الإشارة إليه "أن كثيرا من رواة الأدب كانوا كذلك من رواة الحديث، وإن كانت شهرتهم برواية الحديث وغطت عليها، فالرواية عند هؤلاء العلماء في القرن الثاني، سواء أكانت رواية حديث أم رواية أدب وأخبار، كانت إسناد يرتفع حينا إلى الصحابي وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث، ويرتفع إلى من تدور عنه في الجاهلية، أو إلى رجال يروونها ممن شهدوا الجاهلية، وشهدوا ما يروون بخاصة في الأدب والأخبار، وكثيرا ما يكون الإسناد مرسلا منقطعا في الروايتين كلتيهما"[36]

أشار إلى ذلك الرافعي في قوله عن رواة الأدب: "وكانوا جميعا إنما يطلبون رواية الأدب للقيام به على تفسير ما يشتبه من غريب القرآن والحديث، حتى لا تجد فيهم البتة من لا رواية له في الحديث كثرت أو قلت، والمحدّثون يرون أن ليس براو عندهم من لم يرو من اللغة، لأن موضوع الحديث أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أفصح العرب، ولذا لا يمكن أن يقيموا آراءهم في غريب الأثر ومشتبه الحديث إلا بما يحتجون به من الشعر وكلام العرب، مرويا بسنده، أو مأخوذا عمن يسنده، انتفاء مما عسى أن يرموا به من أو من الوضع والصنعة"[37]

"ولكن ذلك لا يمنعنا من القول إن المتأخرين الذين كتبوا في علوم اللغة والأدب قد احتذوا مناهج المحدثين والفقهاء، وقلدوا علوم الحديث والفقه، وذلك بعد أن نضجت علوم الحديث والفقه، وأرسيت قواعدهما وأصولهما، وعبدت سبلهما وطرائقهما، وذهبت فيهما في التحقيق والتدقيق – في السند والمتن – مذاهب بعيدة، ونجد مثال ذلك (...) عند السيوطي الذي يقول

عن علم الأدب وتأليفه فيه: (هذا علم شريف (...)، حاكيت به علوم الحديث في التقاسيم والأنواع)، ويقول كذلك: (واعلم أن السبب الحامل لي على تأليف ذلك الكتاب الأول، أني قصدت أن أسلك بالعربية سبيل الفقه فيما صنفه المتأخرون فيه وألفوه من كتب الأشباه والنظائر)"[38]

وهي ملاحظة ترتبط بما ذكرناه عن الفرق الدقيق بين المنهج في الروايتين، وهو الدقة في الضبط لاختلاف المحتوى الذي يرتبط في الحديث بكلام النبي صلى الله عليه وسلم، ومضمونه التعبدي، الذي لا بد له من هذا التشدد في شرط السند، في حين يقل في الرواية الأدبية.

التي يمكن أن نقول فيها: "إن هذه الأخبار والروايات قسمان كبيران؛ أولهما: يتصل بالشاعر الجاهلي نفسه، وثانيهما: يتصل بهؤلاء العلماء الرواة الذين عاشوا في القرن الثاني وأخذ عنهم العلماء بعد ذلك شعر الجاهلية وأخبارها"[39]

والسؤال الذي يطرح هنا لم التحديد التاريخي بالقرن الثاني الهجري؟، والجواب أنه قرن التدوين، وفيه انتقلت الرواية الأدبية من الشفاهية إلى الكتابية، التي تعاملت بالمنهج ذاته مع الروايات الشفاهية فأخذت الأولى من الثانية، كما يمكن أن نعضد هذه الفكرة بقضية تتبع المصطلحات في الكتب النقدية التي رأينا أنها طبقت المنهج التاريخي، ويظهر ذلك في جزئية قضية الرواية والتوثيق.

"ومن علامات التراث العربي الإسلامي في كتاب ابن سلام إشاراته إلى علوم القرآن والحديث، واسترشاده بمجموعة من الأدوات العلمية والاصطلاحات الفنية المتداولة في العلوم المذكورة"[40]

وقد حاولنا أن نرقب صور منهج النقاد في تناولهم الرواية الأدبية باعتبارها قضية نقدية منهجية لها إسهامها في تبلور البحث المنهجي الأكثر تحديدا وضبطا، الذي يظهر على مستوى التطبيق النقدي، بالوقوف عند المرزباني (ت384هـ) في كتابه (الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء) الذي اخترناه نموذجا ومدونة تطبيقية لبحث تجليات المنهج النقدي من خلال قضية الرواية الأدبية.

ويعد الموشح لأبي عبيد الله المرزباني بصورة عامة؛ "من كتب النقد التي حوت مآخذ العلماء على الشعراء، وهو بهذا المعنى كتاب جمع لآراء وليس كتاب وضع لنظرية في الأدب أو في حدود الشعر، والمؤلف ينقل عن علماء اللغة والنحو والأدب والرواية آراءهم في الشعراء منذ

الجاهلية حتى أيامه، وما أنكروا على كثير منهم من عيوب في أشعارهم من حيث الشكل أو المضمون، وتتراوح تلك الآراء بين نقد يغلب عليه الذوق الفردي واللمعات الذكية الصائبة، إلى النقد العميق الذي يدل على دراية بحدود الشعر لغة ووزنا ومعنى"[41]، وهو لذلك يمثل نموذجا جيدا لبحث تمظهر المنهج النقدي من خلال قضية الرواية الأدبية والتوثيق.

4- الرواية والتوثيق في كتاب الموشح وأثرها في منهجه النقدي:

يحضر الحس التاريخي في الرؤية النقدية للمرزباني من خلال قضية التوثيق، "ومن مظاهر توثيق النصوص عنده اهتمامه بسلسلة السند على طريقة المحدّثين والمؤرخين؛ إذ إنه يعد الإسناد من أهم الطرق لإثبات نسبة النص إلى قائله، ولم يخل نص في الموشح من سند طويل أو قصير، وهو في ذلك دقيق، يتحرى الصدق في إيراد الأخبار"[42]، والكتاب نموذج للنقد التاريخي التوثيقي، فالكتاب مليء بالروايات والأسانيد، مما يجعل منه أقرب إلى التأريخ لأقوال العلماء في أخطاء وعيوب الشعراء ونقدهم وحكمهم عليهم.

وأول ما يستوقفنا في توثيقه للنصوص عن طريق الرواية بالسند هو طرق الأداء والتحمل؛ وهي الصيغ أو الطرق التي ترد وفقها الروايات، وقد اختلف العلماء في تحديد عددها فهي مراتب عدة

"من المشافهة والسماع المباشر –على طريقة الرعيل الأول من الرواة- انتقل طالب العلم إلى أخذ الحديث عن طريق القراءة، أو الإجازة، أو المناولة، أو المكاتبة، أو الإعلام، أو الوصية، أو الوجادة، وهذه الصور السبع – مع إضافة السماع إليها – هي صور التحمل الثمان التي تحدد مناهج القوم في التعليم"[43]، ولكل منها ألفاظ أدائها الخاصة، يوضحها الجدول الآتي:

المرتبة (طرق التحمل)	عبارات الأداء (العبارات الخاصة بها)
السماع	سمعت، أخبرني، حدثني، أخبرنا، حدثنا، نبأنا، أنشدنا
القراءة	قرأ، قرأت، قرئ، قراءة عليه

الإجازة	أجاز لي، أجاز لنا، إجازة
المناولة	دفع إليه
المكاتبة	كتب إلي، أخبرني في كتابه إلي، أخبرني في كتابه إلي بإجازته لي
الوجادة	وجدت، قرأت بخط فلان

يوضح هذا الجدول بعض مراتب أو طرق التحمل والأداء للرواية؛ "والمراد بهذه الطرق، الاصطلاحات التي تثبت بها اللغة لمن يأخذها، وتصح روايته عند الأداء، وهي أيضا من أوضاع المحدثين، ولهم فيها كلام مستفيض، وعندهم لها علامات خاصة بالأسانيد والصيغ"[44]

ويشير الرافعي إلى أن هذه المراتب تخص الإسناد، ولذلك كانت أخص بالمحدثين من غيرهم، وهي عندهم مراتب وطرق عدة، وصيغ متفاوتة ومختلفة، ويقوم البحث عندهم على منهجية تراعي هذه الاختلافات والتفاوت والفروقات بين صيغة وأخرى، ومرتبة وأخرى.

فإذا تأملنا عبارات أداء المرتبة الأولى (السماع)، نجد أنها تساوت جميعا في إفادة التحديث والسماع، وهو ما يراه علماء اللغة في نقل الأخبار؛ إذ لا خلاف عندهم أن يقول السامع: حدثنا أو أخبرنا أو سمعت أو قال لنا أو ذكر لنا فلان، غير ان نقاد الحديث يفضلون دفع كل لبس وإبهام، ويقولون ينبغي أن يبين السماع كيف كان؛ فما سمع من لفظ المتحدث قيل فيه (حدثنا)، وما قرئ عليه قال الراوي فيه (قرأت) إن كان سمعه بقراءته، ويقول فيما سمعه بقراءة غيره (قرئ وأنا أسمع)، كما يرون أن هناك فرقا في المراتب بين صيغة الجمع والمفرد[45].

وفي ذلك يقول ابن وهب صاحب الإمام مالك: "إنما هي أربعة: إن قلت (حدثني) فهو ما سمعته من العالم وحدي، وإذا قلت (حدثنا) فهو ما سمعته مع الجماعة، وإذا قلت (أخبرني) فهو ما قرأت على المحدث، وإذا قلت (أخبرنا) فهو ما قرئ على المحدث وأنا أسمع"[46]، وقد ذكر الرافعي ما يقابل ذلك في الرواية الأدبية في قوله: "السماع من لفظ الشيخ أو الأعرابي، وللمتحمل بهذه الطريقة عند الأدباء صيغ تتفاوت بحسب منزلة الرواية، فأعلاها أن يقول: حدثني أو حدثنا فلان، ثم أخبرني أو أخبرنا فلان، ثم قال لي فلان، ثم قال فلان – دون الإضافة

إلى نفسه -، ومثله زعم فلان، ويلي ذلك قول الراوي عن فلان، وهذا في اللغة والخبر، أما في الشعر فيقال: أنشدني وأنشدنا، وقد تستعمل فيه بعض تلك الاصطلاحات أيضا، والسماع أصل الرواية"[47]

وفي ما يتصل بلغة الإسناد في الرواية الأدبية، "نجد بعض ألفاظ التحمل والأداء هناك، ما يمكن أن تمثل خصوصية الرواية الأدبية، من ذلك لفظ (الإنشاد)، فتارة يسند الراوي بلفظ الإنشاد إلى راو معين مثل (أنشدني ابن الأعرابي) أو (أنشدني الأصمعي) مثلا، وتارة يسند بلفظ الإنشاد لكن بلا تعيين، مثل (أنشدني أعرابي من طي)، وهذا ما لا نجده في رواية الحديث النبوي"[48]، وهذا ليس اختلافا بين الرواية الأدبية ورواية الحديث، إلا أنه بعد من أبعاد الخصوصية لكل منهما وإن ما ذكر من خصوصية كل منهما.

وسنحاول فيما يأتي تتبع هذه المراتب عند المرزباني في كتابه الموشح، ونقف منها عند أكثرها ورودا، ونبدأ بالسماع وهو أكثر هذه المراتب حضورا عنده، محاولين في ذلك التركيز على منهجه في عرضها ونقدها.

وقبل ذلك نشير إلى أن الغاية من عرض هذه الروايات وتصنيفها حسب مراتبها الأكثر حضورا في كتاب الموشح، هي بحث مدى التزام المرزباني بالمنهجية العلمية للروايات الأدبية وكيفية توثيقها واحترام سماتها، ومدى نجاحه في جمعها وترتيبها وتصنيفها وفق مراتبها وصيغ أدائها، ودقته وصدق تحريه لجل ذلك، دون الوقوف عند متن الروايات من أخبار ونصوص شعرية بالشرح والتعليق إلا بالقدر الذي تقتضيه هذه الغاية، التي تقوم كذلك على الوقوف عند أثر بحث الرواية الأدبية عند المرزباني بوصفها قضية نقدية تقتضي تلك المنهجية، في بناء نقد منهجي مؤسس على آليات ومبادئ علمية.

1.4- السماع:

كثيرة هي الروايات التي جاءت بصيغ السماع في كتاب الموشح، وهو أعلى المراتب وأقواها بصورة عامة، ومن نماذجها ما ورد عنده في عرض الروايات الآتية:

- قوله: "حدثني عبد الله بن يحيى العسكري، عن أحمد بن أبي خيثمة، عن أبي الحسن علي بن محمد المدائني، قال: قال أبو عمرو بن العلاء: قال رؤبة: ما رأيت أفخر من قول امرئ القيس: [الطويل]

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني، ولم أطلب قليلا من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي[49]

- وقوله: "أخبرني محمد بن يحيى قال: حدثنا محمد بن يزيد النحوي، قال: حدثنا المازني، قال: سمعت الأصمعي يقول: كان امرؤ القيس ينوح على أبيه حيث يقول: [المديد]

ربّ رام من بني ثُعَل مخرج زَندَيه من ستره

ثم قال: أما علم أن الصائد أشد ختلا من أن يظهر شيئا منه، ثم قال: فكفيه إن كان لا بد أصلح، قال: فهو أصلحه (كفيه)"[50]

- وقوله: "أخبرنا محمد بن الحسن بن دريد، قال: أخبرنا أبو حاتم، قال: حدثني الأصمعي، قال: طفيل الغنوي في بعض شعره أشعر من امرئ القيس"[51]

- وقوله: "حدثنا علي بن سليمان الأخفش، عن أبي العباس ثعلب، قال: قال الأصمعي: قلت لبعضهم: ما تقول في شعر الجعدي؟ قال: صاحي خلقان، عنده مِطْرف بألف وخلَق بدرهم."[52]

- وقوله: "وأنشد الأخنس بن شهاب التغلبي: [الطويل]

تظلّ به رُبْذُ النّعام كأنّها إماءٌ تزجّى بالعشيّ حواطبُ

لأن النعامة إذا خفضت عنقها ومشت، كانت أشبه شيء بماش وعلى ظهره حمل"[53]

الملاحظ على هذه النماذج أن الروايات الأدبية التي أوردها المرزباني بمرتبة السماع، قد جاءت مختلفة الصيغ حيث تنوعت عبارات الأداء في هذه المرتبة مثل قوله: (حدثني، حدثنا، أخبرني، أخبرنا، أنشد)، كما نلحظ أن المرزباني تحرى الدقة في توثيقه للروايات؛ حيث وردت في سلسلة سند من الرواة والعلماء، ما يدل على منهجيته في ذلك؛ فاهتمامه بسلسلة السند وفق منهج المحدثين دلالة حسه النقدي بأهمية هذه الطريقة في توثيق النصوص، خصوصا وهو بصدد عرض آراء العلماء والنقاد في هذه النصوص والعيوب التي لحقتها، وهو في ذلك دقيق يتحرى الصدق في نقل الأخبار؛ ولا أدل على ذلك من ورود صيغ مختلفة في سلسلة سند واحدة ففي النموذج الأول مثلا جاءت الصيغ كالآتي: (حدثني، عن فلان، عن فلان، قال، قال)، وفي النموذج الثاني: (أخبرني، حدثنا، قال، حدثنا، سمعت، يقول).

ونقف ضمن هذه المرتبة عند ألفاظ وصيغ أخرى تدل على الأخذ المباشر عن العالم أو الناقد، من ذلك:

- قوله: "وقال أبو سعيد مؤدبي: وأخس من إكذابه نفسه أن يكون جعل عفوها خلوتها من أحبته، ومع خلوها منهم فقد غيرتها الأمطار"[54]، معلقا على قول زهير بن أبي سلمى: [البسيط]

قف بالدّيار التي لم يعفها القدم بلى وغيّرها الأرواح والدّيم

وأشار في السند إلى أنه أخذ مباشر فجاء بلفظ (قال) وأعقب اسم الراوي بقوله (مؤدبي) منبها إلى أنه أخذها عن شيخه وهذا نموذج لأقصر وأدق سلسلة سند.

2.4- المكاتبة:

وهي "أن يكتب الشيخ بخطه، أو يكلف غيره بأن يكتب عنه بعض حديثه لشخص حاضر بين يديه يتلقى العلم عليه، أو لشخص غائب عنه ترسل الكتابة إليه (...) ومن ألفاظ المكاتبة قولهم: حدثني فلان أو أخبرني كتابة بخطه، أو بخط فلان"[55]، وتأتي المكاتبة عند المرزباني في المرتبة الثانية من مراتب الرواية عنده، ومن نماذجها في الموشح:

- قوله: "كتب إلي أحمد بن عبد العزيز الجوهري، أخبرنا عمر بن شبة، قال: للفرزدق في شعره افتخار بعيد المعنى لا وجه له، من ذلك قوله: [البسيط]

أنا ابن خِنْدِف والحامي حقيقتها قد جعلوا في يديّ الشّمس والقمرا"[56]

- قوله: "كتب إلي أحمد بن عبد العزيز، أخبرنا عمر بن شبة، وحدثني علي بن عبد الرحمن، قال: أخبرني يحيى بن علي بن يحيى المنجم، عن أبيه، قالا: قال جرير: إنه والله ما يهجوني الأخطل وحده، وإنه ليهجوني معه خمسون شاعرا كلهم غزير ليس بدون الأخطل، وذلك أنه إذا أراد هجائي جمعهم على شراب، فيقول هذا بيتا وهذا بيتا حتى يتموا القصيدة وينتحلها الأخطل"[57]

ونشير هنا إلى أن أكثر الروايات بمرتبة المكاتبة وردت بهذه السلسلة (كتب إلي أحمد بن عبد العزيز، أخبرنا عمر بن شبة)، وكأن أحمد بن عبد العزيز جمعها في كتاب واحد نقلا عن عمر بن شبة بطريقة السماع، ثم أرسلها إلى المرزباني كما جمعها، لكن المرزباني لم يوردها مرتبة في موشحه، وإنما جاءت في مواضع مختلفة من الكتاب (في الصفحات: 132، 142، 174، 245، 247، 253، 257)، محترما في ذلك الخطة والمنهج الذي اتخذه في تقسيم الكتاب وتتبع الشعراء

محل بحث العلماء والنقاد وفق ثلاثة مذاهب، باعتبار الزمن إلى جاهليين وإسلاميين ومحدثين مع مراعاة الناحية الفنية لنصوص هؤلاء الشعراء، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى عرض هذه الروايات تبعا لموضع كل خبر أو نص شعري لشاعر معين؛ وهذا أيضا اتباع لمنهجه في الكتاب وترتيبه للشعراء في كل باب يمثل مدرسة فنية أو فترة زمنية من الثلاثة السابقة، حيث كان يذكر آراء العلماء حول كل شاعر على حدة.

3.4- **الوجادة**: وهي "أن يسوق ما يرويه على أنه وجده في كتاب، وهذا هو أضعف وجوه الأخذ؛ لأنه لا ضمان فيه لعهدة المروي، وإنما اضطروا إليه حين كثرت الكتب"[58]، وذلك "كأن يجد شخص كتابا بخط من لم يعاصره وعرف خطه، سواء لقيه أم لم يلقه، أو بخط من لم يعاصره، ولكنه استوثق من أن الكتاب صحيح النسبة إليه، بشهادة أهل الخبرة، أو بشهرة الكتاب إلى صاحبه، أو بسند الكتاب المثبت فيه، أو غير ذلك مما يؤكد نسبة الكتاب إلى صاحبه، فإذا ثبت عنده هذا فله أن يروي منه ما يشاء على سبيل الحكاية لا على سبيل السماع، وصيغ الرواية بالوجادة كثيرة، منها: وجدت في كتاب فلان، أو قرأت في كتاب فلان كذا وكذا، أو وجدت بخط فلان، أو قرأت بخط فلان، أو قرأت في كتاب فلان بخطه، أو يقول: وجدت أو قرأت بخط فلان عن فلان، ويذكر الذي حدثه ومن فوقه"[59]

ومن نماذج الوجادة عند المرزباني:

- قوله: "ووجدت بخط محمد بن القاسم بن مهرويه، حدثني روح بن الفرج، قال: حدثنا الأصمعي، قال: سألت بشار بن برد العقيلي: أي الشعراء أشعر في الإسلام؟ قال: جرير والفرزدق، قال: قلت: فما بالهم جعلوا الأخطل ثالثا؟ قال: تعصبت له ربيعة، فقالت لمضر: ألحقوا لنا شاعرا، فألحقوه وليس هناك، قال: قلت: فأي الرجلين أشعر جرير أم الفرزدق؟ فقال: كانت لجرير ضروب من الشعر لم يكن للفرزدق فيها شيء، ولقد ماتت النوار امرأة الفرزدق فما ناحوا عليها إلا بشعر جرير، حيث يقول: [البسيط]

تركتني حين كفّ الدّهر من بصري وحين صرت كعظم الرّمة البالي"[60]

- ومنها قوله: "وجدت بخط محمد بن القاسم بن مهرويه قال: حدثني أبو المثنى أحمد بن يعقوب ابن أخت أبي بكر الأصم البصري، قال: قيل لبشار: إذا شئت أن تثير العجاجة أثرتها في شعرك ثم تقول: **حبابة ربّة البيت** ...وذكر البيتين، قال: فقال: إنما أخاطب كلا بما يفهم."[61]

بعد عرض هذه النماذج يمكن تسجيل جملة من الملاحظات والتعليقات حولها أهمها:

- تظهر هذه النماذج أن المرزباني على علم بأصول الرواية الأدبية ومصطلحاتها، ومراتبها وطرق التحمل والأداء فيها، على ما فيها من تفاوت واختلاف وتنوع، وقد سلك فيما أورد من روايات مسلك التحري والتحقيق في توثيق النصوص، متتبعا في ذلك سلاسل الأسانيد قصيرة كانت أم طويلة، وعلى اختلاف رواتها ومشاربهم العلمية من فقهاء ولغويين ونقاد وشعراء.

- اتباع هذه المنهجية العلمية، فيه إشارة إلى أن المرزباني أفاد مما وصل إليه المحدثون في بحث قضية الرواية وتوثيق النصوص، ولعل ذلك ظاهر في استخدامه الدقيق لصيغ وألفاظ الأداء، ما ينم عن وعيه بمنهج الرواية؛ حيث إنه كان مدركا للفروقات بين (أخبرني، وحدثني، وأخبرنا، وحدثنا، وكتب إلي، ووجدت بخط فلان، وكتبت هكذا من خط فلان...)، وهذا الإدراك يشير إلى استيعابه لطرق الرواية وعرف كيف يوظفها فيما عرض من كم هائل من الروايات والأخبار والأشعار وآراء العلماء والنقاد.

- حاول المرزباني في موشحه رصد مختلف الاتجاهات النقدية، التي ظهرت على أيدي طوائف النقاد من أواخر القرن الأول إلى القرن الرابع الهجريين، وقد نقل آراء هذه الطوائف المختلفة بطرق مختلفة، واعتمد على مؤلفاتهم مصادر له، وقد أخذ عليه أنه ترك نصوص هؤلاء غفلا، دون الإشارة إلى مصادرها وهي داخلة ضمن منهج التوثيق والتحقيق، إلا أنه مع ذلك كان ينسبها إلى أصحابها، الذين تنوعت مشاربهم العلمية؛ من علماء باللغة والرواية كالأصمعي وأبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب، والنحو كثعلب والفراء وأبي جعفر الرؤاسي، ونقاد كابن سلام الجمحي وقدامة بن جعفر وابن طباطبا، وأدباء مثل محمد بن داود الأصفهاني ومحمد بن عمار الكاتب وغيرهم، حيث استشهد بآرائهم في تعليقه على الروايات ومضامين أخبارها وأشعارها، ومثال ذلك:

قوله: "حدثني إبراهيم بن محمد العطار، قال: حدثنا الفضل بن الحباب، عن محمد بن سلام، عن يونس، قال: قال ابن أبي إسحاق عن بيت الفرزدق: [الطويل]

وعضُّ زمانٍ يا ابنَ مروان لم يدع من المال إلاّ مُسحَتا أو مُجلَّفُ

ويروى (مجرَّفُ) وللرفع وجه.

وقال أبو عمرو بن العلاء: لا أعرف له وجها، وكان يونس لا يعرف له وجها، قلت له: لعل الفرزدق قالها على النصب ولم يأبه، قال: لا كان ينشدها على الرفع، وأنشدنيها رؤبة بن العجاج على الرفع، وتقول العرب: سَحَتُّهُ وأسْحَتُّهُ نقرؤهما جميعا في القرآن، فمن قال:

﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾[62]، فهو من أسحت وهو مُسحَت، وهي التي قال الفرزدق، ومن قال (فيَسْحَتَكُمْ) فهي من سُحِت وهو مسحُوت.

قال ابن سلام: فأخبرني الحارث البناني أخو أبي الجحاف، أنه سمع الفرزدق ينشد [الطويل]:

فيا عجبا حتّى كُليبٌ تسبّني كأنّ أبَاها نهشلٌ أو مجاشعُ

كأنه جعله غاية فخفض.

وأخبرني محمد بن يحيى قال: حدثني أبو ذكوان، قال: حدثنا عبد الله بن محمد النحوي، قال: حدثني الفرّاء، قال: أخبرنا أبو جعفر الرؤاسي، فال: حدثنا أبو عمرو بن العلاء، قال: أنشدني الفرزدق قصيدته: [الطويل]

عزفتَ بأعشاشٍ وما كدتَ تعزفُ*

فمر فيها:

وعضُّ زمانٍ يا ابنَ مروان لم يدع من المال إلاّ مُسحَتا أو مُجلَّفُ

فقال ابن أبي إسحاق: على أي شيء رفعت مجلفا، قال: على ما يسوؤك، قال أبو عمرو: فقلت له: أصبت، هو جائز على المعنى على أنه لم يبق سواه، وكان أبو عمرو ممن حسن الله علمه وفهمه.

قال الفراء: مُسْحَتا؛ مستأصلا، من قول الله عز وجل:﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾؛ أي يستأصلكم، إلا أنه في القرآن من سحت، وجاء به الفرزدق من أسحت"[63]

وقد يقدم للرواية برأي نقدي حول المضمون أو القضية النقدية التي ترد في الرواية، من ذلك قوله: "قال أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي: ينبغي للشاعر أن يجتنب الإشارات البعيدة، والحكايات الغلقة، والإيماء المشكل، ويتعمد ما خالف ذلك، ويستعمل من المجاز ما يقارب الحقيقة، ولا يبعد عنها، ومن الاستعارات ما يليق بالمعاني التي يأتي بها"[64]، ثم يسرد الأمثلة لذلك من روايات ونصوص شعرية.

ومن ذلك قوله: "قال قدامة بن جعفر: من عيوب الشعر أن تكون القافية مستدعاة قد تكلف في طلبها، فاشتغل معنى سائر البيت بها، مثل ما قال أبو تمام الطائي: [الرجز]

كالظَّبْيَةِ الأَدْمَاءِ صَافَتْ فَارْتَعَتْ زَهْرَ الْعَرَارِ الغَضَّ وَالجَثْجَاثَا

فجميع هذا البيت مبني لطلب هذه القافية، وإلا فليس في وصف الظبية بأنها ترتعي الجثجاث كبير فائدة؛ لأنه إنما توصف الظبية إذا قصد لنعتها بأحسن أحوالها أن قال: إنها تعطو الشجر، لأنها حينئذ رافعة رأسها، وتوصف بأن ذعرا يسيرا قد لحقها"[65]

إن آراء النقاد التي أوردها المرزباني من مثل: قدامة بن جعفر، وابن طباطبا العلوي، وابن سلام الجمحي وغيرهم، وهي في عمومها تقديم نظري يؤصل لقضية نقدية أو فنية معينة؛ كالصور والمجاز والعروض والمعاني، إنما تدل على أن المرزباني لم يبني كتابه على جمع ما تفرق من مآخذ العلماء على الشعراء وتصنيفها وترتيبها، بل كان يؤصل ويناقش ما ورد فيها من اصطلاحات وقضايا تتصل بالشعر ونقده، وهذا ينم عن وعي نقدي ومنهجي.

وقد أشار صراحة إلى المصدر الذي أخذ منه في موضع واحد من كتابه وهو رسالة ابن المعتز في أبي تمام، حين قال: "قال عبد الله بن المعتز في رسالة نبه فيها على محاسن شعر أبي تمام ومساويه: ربما رأيت في تقديم بعض أهل الأدب الطائي على غيره من الشعراء إفراطا بينا، فاعلم أنه أوكد أسباب تأخير بعضهم إياه عن منزلته في الشعر لما يدعوه إليه اللجاج، فأما قولنا فيه فإنه بلغ غايات الإساءة والإحسان"[66]، وقد يعود ذلك لكثرة النصوص التي أخذها منه وهي متتالية، أخذت من الكتاب أربع عشرة صفحة (من الصفحة 346 إلى الصفحة 359)، عرض فيها ما أخذه ابن المعتز على شعر أبي تمام من مآخذ في بعض شعره من سرقة، وعيوب على مستوى الألفاظ والمعاني والصور، حيث كانت رسالة ابن المعتز مصدرا ثريا للغاية من تأليف المرزباني لموشحه وهي جمع مآخذ العلماء والنقاد على الشعراء.

- كما أنه أدخل نفسه ضمن تلك الروايات تعليقا عليها بقوله مثلا:

قوله: "قال الشيخ أبو عبيد الله المرزباني رحمه الله تعالى: وقول أبي العتاهية في مرثية عيسى بن جعفر أشبه بقوله في سعيد بن وهب مما ذكره الصولي، وهو: [الوافر]

بكت عيني على عيسى بن جعفر عفا الرحمن عن عيسى بن جعفر"[67]

وذلك في تعقيبه على تعليق الصولي على بيتين من الشعر في مرثيته لسعيد بن وهب، وهما قوله: [المديد]

"مات والله سعيد بن وهب رحم الله سعيد بن وهب

يا أبا عثمان أبكيت عيني يا أبا عثمان أوجعت قلبي

(...) قال الصولي: وله شبيه بهذا؛ حدثني أحمد بن يزيد، قال: حدثني الفضل اليزيدي، قال: قيل لأبي العتاهية: مات محمد بن يزيد المسلمي، فقال: [المجتث]

قد مات خلّي وأنسي محمّدُ بنُ يزيدِ

ما الموت والله منّا خلافَهُ ببعيدِ"[68]

وهو في ذلك يقدم رأيه على رأي الصولي؛ إذ قابل المرزباني بين النموذجين في الألفاظ والمعنى وتشابهها فيهما حد التطابق، وبالمقارنة مع ما عرضه الصولي يظهر أنه بعيد الشبه، وذلك ظاهر.

وله من النماذج ما يستشهد فيها بآراء العلماء والنقاد تعليقا على النص الذي يورد، كقوله: "حدثني محمد بن أحمد الكاتب، قال: حدثنا أحمد بن يحيى النحوي، عن محمد بن سلام، قال: قال يونس: أنشد كثيّر عبد الملك مدحته التي يقول فيها: [الطويل]

علَى ابن أبِي العَاصي دِلاصٌ حصينةٌ أجَاد المُسَدِّي سرْدَها وأذَالها

يؤُودُ ضَعيفَ القومِ حملُ قَتِيرِها ويستضلعُ القومُ الأَشَمُّ احْتِمالَهَا

فقال له عبد الملك: قول الأعشى لقيس بن معدي كرب أحب إليّ من قولك (...)، ألا قلت كما قال الأعشى: [الكامل]

وإذَا تجِيءُ كَتيبَةٌ ملمُومةٌ خرسَاءُ يخْشَى الذّائدُونَ نِهَالَهَا

كنتَ المُقدَّمَ غيرَ لاَبِسِ جُنَّةٍ بالسَّيْفِ تَضْرِبُ مُعْلِمًا أبْطَالُهَا

فقال: يا أمير المؤمنين، وصف الأعشى صاحبه بالطيش والخُرق والتغرير، ووصفتك بالحزم والعزم، فأرضاه.

قال الشيخ أبو عبيد الله المرزباني رحمه الله تعالى: رأيت أهل العلم بالشعر يفضلون قول الأعشى في هذا المعنى على قول كثيّر؛ لأن المبالغة أحسن عندهم من الاقتصار على الأمر الأوسط، والأعشى بالغ في وصف الشجاعة حتى جعل الشجاع شديد الإقدام بغير جُنّة، على أنه وإن كان لبس الجُنّة أولى بالحزم وأحق بالصواب، ففي وصف الأعشى دليل قوي على شجاعة صاحبه؛ لأن الصواب له، ولا لغيره إلا لبس الجنة، وقول كثيّر يقصر عن الوصف."[69]

ومن ذلك قوله: "أخبرني الصولي، قال: ما أحسن عندي أبو سعد المخزومي في قوله: [الطويل]

أشْيَبٌ ولمْ أقْضِ الشَّبَابَ حُقُوقَهُ ولَمْ يَمْضِ منْ عَهْدِ الشَّبَابِ قَدِيمُ

لأنه ذكر الشباب في هذا البيت مرتين، وكان يجب أن يغير الأول أو الثاني، وتغيير الثاني أشبه؛ لأن قوله: (ولم يمض من عهد الشباب) قول من لم يذكر الشباب في صدر بيته، ولم يتكلم الحذّاق في هذا إلا برد ضمير عليه، فيقال: ولم يمض منه، أو له، أو عليه؛ فلو قال: (من عهد عليه قديم) كان أشبه.

قال الشيخ أبو عبيد الله المرزباني رحمه الله تعالى: وللبحتري مثله؛ وهو قوله: [الخفيف]

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدِنّسُ نَفْسِي وَتَرَفَّعْتُ عِنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ"[70]

ومنها قوله معلقا على حكومة النابغة الذبياني المشهورة بين حسان بن ثابت والأعشى والخنساء، التي سنقف منها عند رأيه حول بيتي حسان، قال: "قال الشيخ أبو عبيد الله المرزباني رحمه الله: وقال قوم ممن أنكر هذا البيت في قوله: يلمعن بالضحى، ولم يقل بالدجى، وفي قوله:

وأسيافنا يقطرن، ولم يقل: يجرين؛ لأن الجري أكثر من القطر، وقد رد هذا القول واحتج فيه قوم لحسان بما لا وجه لذكره في هذا الموضع.

فأما قوله: فخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك، فلا عذر عندي لحسان فيه على مذهب نقاد الشعر.

وقد احترس من مثل هذا الزلل رجل من كلب؛ فقال يذكر ولادتهم لمصعب بن الزبير، وغيره ممن ولده نساؤهم: [الطويل]

وعبدَ العزيز قد ولدنا ومصعبا وكلبٌ أبٌ للصالحين ولودُ

فإنه لما فخر بمن ولده نساؤهم فضل رجالهم، وأخبر أنهم يلدون الفاضلين، وجمع ذلك في بيت واحد فأحسن وأجاد"[71]، ونقف في هذا النموذج عند ثلاث ملاحظات مهمة:

الأولى: ترتبط بالبيت الأول لحسان بن ثابت، وهو قوله:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

حيث وافق المرزباني النابغة الذبياني فيما عابه على حسان في عدم المبالغة في الوصف الدال على الفخر بالجود والنجدة؛ حين قال معلقا على صدر البيت: "أقللت جفانك، ولمعتها"، وعضد المرزباني ذلك برأي حول العيب نفسه ولكن في دلالة عجز البيت، وقد نسب الرأي إلى مجهول بقوله: (قوم ممن أنكر هذا البيت) والرواية له، والرأي هو أن حسانا استخدم ألفاظا يقصر معناها عن المطلوب، حيث جمع المرزباني بين الحكمين المتوافقين في عيب استخدام حسان للألفاظ، ما أثر على أداء المعنى.

مع إغفاله ذكر رد من احتج لحسان في قوله: (واحتج فيه قوم لحسان بما لا وجه لذكره في هذا الموضع)، مع أن حجته كانت لتصبح أقوى وأكثر قبولا عند المتلقي إذا عرضها ورد عليها بما ذكر.

الثانية: تتعلق بالبيت الثاني، وهو قول حسان:

ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

الذي وافق فيه كذلك ما ذهب إليه النابغة، حين عاب معنى البيت المخالف للعرف ومذهب الشعراء في الفخر بالأصل لا الفرع، ويظهر ذلك في قول المرزباني: (فلا عذر عندي لحسان فيه على مذهب نقاد الشعر)، ثم أورد شاهدا شعريا، وقد برع في تعليقه على هذا الحكم؛ حين قارب وقابل بين الصور الواردة في البيتين على أنه لم يقدم شرحا وتحليلا لبيان هذه المقاربة والمقارنة، ويمكن توضيح ذلك كما يأتي:

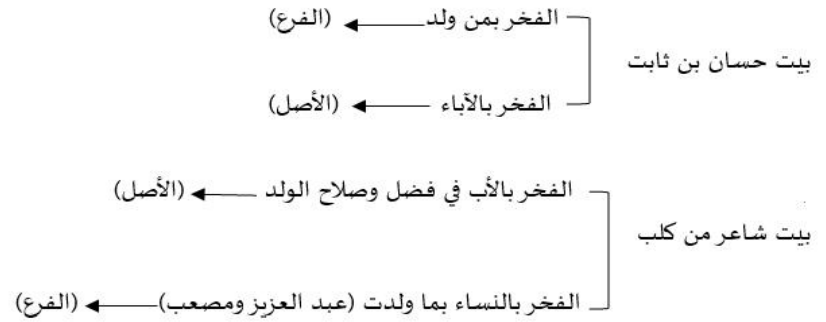

حيث قدم حسان بن ثابت الفرع على الأصل، وذلك خروج عن مذهب الشعراء في الفخر، في حين أصاب الشاعر الثاني، مع أنه قدم في الوصف الفرع على الأصل لكنه لم يخرج عن المذهب، وقد أبان استشهاد المرزباني بهذا البيت الشعري وهذه المقابلة بين صورتي البيتين عن حسه النقدي.

- وهكذا يتضح أن المرزباني لم يقف أمام النصوص والأخبار والروايات التي أوردها جامعا وعارضا لها مستسلما لما جاء فيها، ولكنه قدم منهجا علميا في الجمع والعرض وتوثيق النصوص والآراء النقدية، ونسبتها إلى أصحابها، فقد كان حريصا على بيان مصدر الخبر وكيف حصل عليه، مستعينا في ذلك بالرواية الشفاهية والكتابية، التي أثارت لديه جملة من قضايا تتصل بقول الشعر ونقده، فكانت له تعليقات وشروحات ومناقشات، أو نقد وحكم على الأخبار أو الروايات أو النصوص الشعرية الواردة فيها، معتمدا على وعيه المنهجي وحسه العلمي وذوقه النقدي.

5- الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة يمكننا القول، إن أبا عبيد الله المرزباني في كتابه (الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء) بصورة عامة اتبع منهجا تاريخيا في تتبعه ومناقشته لآراء العلماء في أغلاط الشعراء، معتمدا في ذلك على الرواية الأدبية الشفاهية والكتابية، وما تتطلبه من منهجية علمية دقيقة في توثيق النصوص ونسبتها إلى الرواة وتصحيحها، والاهتمام بالأسانيد، التي أثرت وأسهمت في كشف عديد القضايا النقدية كإثبات السرقة الشعرية وعيوب الألفاظ والمعاني، عن طريق الإسناد واختلاف الروايات وتفاوت مراتبها، وقد وفق المرزباني في تطبيق هذا المنهج، كيف لا وقد شهد له العلماء بتمرسه وتخصصه في بحث قضية الرواية الأدبية، حتى وصفه ابن النديم بقوله إنه: "آخر من رأينا من الإخباريين والمصنفين، راوية صادق اللهجة،

واسع المعرفة بالروايات، كثير السماع"[72]، وهذا مما أضفى صفة التخصص على منهجه في الرواية الأدبية جمعا وتوثيقا، وتأصيلا، ومناقشة نقدية.

الهوامش:

[1]- الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ط2، 1965م، ج1، ص333.

[2]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ج6، ص 27-272.

[3]- القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي بن محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، ص23.

[4]- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق وتعليق: النبوي شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 2000م، ط1، ج1، ص197.

[5]- القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، 23.

[6]- المرجع نفسه، ص23.

[7]- ينظر: محمد بن سعد الدكان، بلاغة العقل العربي 'تجليات المثاقفة في التراث النقدي'، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1،2014م، ص117.

[8]- ينظر: مناهج النقد الأدبي لديتش، ص514، نقلا عن: وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث 'رؤية إسلامية'، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2007. ص28.

[9]- أبو فرج الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1991م، ج7، ص12.

[10]- محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي 'دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية'، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 2006م، ص499.

[11]- ينظر: محمد بن سعد الدكان، بلاغة العقل العربي، ص118.

[12]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي 'دراسة في السردية العربية'، دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ص269.

[13]- محمد بن سعد الدكان، بلاغة العقل العربي، ص129.

[14]-أبو بكر الصولي، أخبار أبي تمام، تحقيق خليل عساكر ومحمد عبده عزام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1937. ص101.

[15]- العمدة، ج1، ص130.

[16]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص337.

[17]- محمد بن سعد الدكان، بلاغة العقل العربي، ص118.

[*]- ويمكن أن نذكر هنا رأي إحسان عباس في أن النقد الحقيقي عند العرب بدأ مع التدوين، ولذلك اعتمد في تأريخه لهذا النقد القرن الهجري الثاني بداية زمنية في كتابه (النقد الأدبي عند العرب)، وقد يكون ذلك أن إحسان عباس اعتمد أحقية ما دوّن مما نقل شفاهة لأنه خضع لمنهج التوثيق والتحقيق.

[18]- للتفصيل ينظر: محمد بن سعد الدكان، بلاغة العقل العربي، ص106-111.

[19]- أحمد محمد نتوف، النقد التطبيقي عند العرب في القرن الرابع والخامس الهجريين، دار النوادر، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص263.

[20]- المرجع نفسه، ص263.

[21]- إدريس الناقوري، الأطروحة والتأويل 'دراسات نقدية في الأدب والتراث'، إيديوسوفت، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006، ص86.

[22]- المرجع نفسه، ص87.

[23]- أحمد جاسم النجدي، أثر علماء الحديث في منهج البحث الأدبي، مجلة المورد، دار الجاحظ، العراق، المجلد السابع، العدد الثاني، 1978، ص131.

[24]- المرجع نفسه، ص131.

[25]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص227.

[26]- محمد بن سعد الدكان، بلاغة العقل العربي، ص123.

[27]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص310.

[28]- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1988،7، ص255

[29]- ينظر: مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط6، 2001، ج1، ص141

[30]- محمد بن سعد الدكان، بلاغة العقل العربي، ص119.

[31]- المرجع نفسه، ص119.

[32]- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج1، ص287.

[33]- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص256.

[34]- أحمد جاسم النجدي، أثر علماء الحديث في منهج البحث الأدبي، مجلة المورد، ص130.

[35]- شوقي ضيف، البحث الأدبي، ص167

[36]- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص257.

[37]- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج1، ص288.

[38]- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، 257-258.

[39]- المرجع نفسه، ص261.

[40]- إدريس الناقوري، الأطروحة والتأويل، ص89.

[41]- المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق وتقديم: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص9.

[42]- أحمد محمد نتوف، النقد التطبيقي في القرنين الرابع والخامس الهجريين، ص269.

[43]- صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه 'عرض ودراسة'، دار العلم للملايين للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط15، 1984، ص88.

[44]- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج1، ص331.

[45]- ينظر: صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، ص90.

[46]- الكفاية في علم الرواية، ص294، نقلا عن: صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحاته، ص91.

[47]- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج1، ص332.

[48]- محمد بن سعد الدكان، بلاغة العقل العربي، ص125.

[49]- المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، ص37.
[50]- المصدر نفسه، ص38.
[51]- المصدر نفسه، ص45.
[52]- المصدر نفسه، ص80.
[53]- المصدر نفسه، ص58.
[54]- المصدر نفسه، ص48.
[55]- صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، ص98، وينظر: مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج1، ص333.
[56]- المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، ص132.
[57]- المصدر نفسه، ص174.
[58]- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج1، ص333.
[59]- شعيب مقنونيف، الاتجاه النقدي في كتاب الموشح للمرزباني 'مقاربة تفسيرية تحليلية'، أطروحة دكتوراه في النقد القديم، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2004/2003، ص122.
[60]- المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، ص147.
[61]- المصدر نفسه، ص 289.
[62]- طه،61.
[*]- هذا صدر بيت، وعجزه: وأنكرت من حوراءَ ما كنتَ تعرفُ.
[63]- المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، ص130-131.
[64]- المصدر نفسه، ص289.
[65]- المصدر نفسه، ص362.
[66]- المصدر نفسه، ص346.
[67]- المصدر نفسه، ص298.
[68]- المصدر نفسه، ص298.
[69]- المصدر نفسه، ص178-179.
[70]- المصدر نفسه، ص387-386.
[71]- المصدر نفسه، ص77.
[72]- ابن النديم، الفهرست، ص196.